وقفات تدبرية حول

أصحاب الكهف

هل استيقظ الفتية المؤمنة من
أصحاب الكهف وهم طويلو الشعر
والأظافر، وقد تغير مظهرهم. ؟!

بقلم
محمد مهدي قشلان

قال الله تعالى في الآية الثامنة عشرة من

سورة الكهف:

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ
وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ
الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ
بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ
مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، سيدنا محمد سيد الأولين والأخِرين ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد فَهِم بعض الناس من قوله تعالى عن أصحاب الكهف: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [الكَهْف: ١٨] تغيّر أشكال أصحاب الكهف تغيراً فاحشاً، من كثرة شعورهم، وطول أظفارهم؛ أو لأن أعينهم كانت منفتحة كالمتيقظ؛ لظاهر هذه الآية مِن أن النّظر إليهم سيملأُ

الرعب في القلب، وهو وجه عند بعض المفسرين، لكنَّ الراجحَ المُقدم خلاف ذلك تماماً كما سيأتي..

أقوال المفسرين والمحققين في ذلك:

والراجح من أقوال المفسرين أنَّ أشكالهم لم تتغير، وكذلك شعورهم وأظافرهم، وأما قوله تعالى: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً} فالمعنى: لو اطلعت عليهم ولم تكن علمت بقصّتهم لحسبتهم لصوصاً قطاعاً للطريق، إذ هم عدد في كهف وكانت الكهوف مخابئ لقطاع الطريق، فلوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ وهم في تلك الحالة لفررتَ منهم وملكَكَ الرعبُ من شرهم، كقوله تعالى واصفاً حال سيدنا إبراهيم لما رأى ضيوفه يعرضون عن طعامه: {نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ

مِنْهُمْ خِيفَةً } [هُودٍ: ٧٠]

وليس المراد الرعب من ذواتهم؛ إذ ليس في ذواتهم ما يخالف خَلْق الناس، ولا الخوف من كونهم أمواتاً؛ إذ لم يكن الرعب من الأموات من خلال العرب {١}.

أو أن السبب في الخوف والرعب منهم؛ ما ألقى الله تعالى عليهم من الهيبة وهم في كهفهم، فالله تعالى حمى أهل الكهف بالرعب حتى لا يطلع عليهم أحد، ولا يصل إليهم واصل، ولا تلمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله {٢}.

قال العلامة الألوسي-رحمه الله-: "فالذي ينبغي أن يعول عليه أن السبب في ذلك ما ألقى الله تعالى عليهم من الهيبة وهم في كهفهم، وأن شعورهم

وأظفارهم إن كانت قد طالت فهي لم تطل إلى حد ينكره من يَراه، واختار بعض المفسرين أن الله تعالى لم يغير حالهم وهيئتهم أصلاً ليكون ذلك آية بينة{٣}"

وبدليل قولهم: { قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.. } [الكَهْف: ١٩] فلو كانت أشكالهم تغيرت بمرور الزمن للاحظوا ذلك عند استيقاظهم ولم يترددوا في مدة لبثهم ونومهم حتى قالوا يوماً أو بعض يوم.!

قال الإمام القرطبي -رحمه الله-: "وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ شُعُورَهُمْ وَأَظْفَارَهُمْ كَانَتْ بِحَالِهَا{٤}".

وقال العلامة ابن عطية الأندلسي-رحمه الله-: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظَ لهُمُ

الحَالةَ الَّتِي نَامُوا عليهَا لِتَكُونَ لهم ولغيرهم فيهم آيةً، فلم يُبْلَ لهم ثوبٌ ولم تُغَيَّرْ صفةٌ، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهمَّ [٥].

وقال العلامة الشوكاني ــبعد أن ذكر مَن قال بطول أظفارهم وشعورهمــ:

ويدفعه قوله تعالى: { لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } فإنَّ ذلك يدل على أنهم لم ينكروا من حالهم شيئًا، ولا وجدوا من أظافرهم وشعورهم ما يدل على طول المدة[٦].

ختاماً:

قد أخذ العلماء من هذه الآية: { وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ

وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا } فوائد لطيفة منها:

" أنَّ صحبة الأخيار تُوصل العبد إلى أعلى عليين، وتوجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة "

قال ابن كثير-رحمه الله-: رَبَضَ كَلْبُهُمْ على الباب كما جرت به عادة الكلاب، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب كما ورد في الصحيح..، وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا

الكلب ذكر وخبر وشأن{٧}.

"من أحبَّ أهل الخير نالَ مِن بركتهم"

قال الإمام القرطبي-رحمه الله-ما ملخصه:

قال ابن عطية: وحدثني أبي قال: سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبرِ وَعْظِهِ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ: إنَّ مَن أحبَّ أهلَ الخيرِ نالَ من بركتهم، كلبٌ أحبَّ أهلَ فضل وَصَحِبَهُمْ فَذَكَرَهُ الله في محكم تنزيله.

قلت-أي القرطبي-: إذا كان بعض الكلاب نال هذه الدرجة العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك في كتابه، فما ظنُّك بالمؤمنين المخالطين المحبين للأولياء. والصالحين!!

بل في هذا تَسْلِيَةٌ وَأُنْسٌ للمؤمنين المقصرين عن درجات الْكَمَالِ، الْمُحِبِّينَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَآلِهِ خَيْرِ آل.

وقد رُوِيَ في الصحيح عن أنسﷺقال: بَيْنَا أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خَارِجَانِ مِنَ الْمَسْجِدِ فَلَقِيَنَا رَجُلٌ عِنْدَ سُدَّةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:" مَا أَعْدَدْتَ لَهَا" قَالَ فَكَأَنَّ الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت بها كَثِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ:" فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ".

وفِي رِوَايَةٍ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ: فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه

وسلم:" فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ".

قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ.

قُلْتُ-أي القرطبي-: وَهَذَا الَّذِي تَمَسَّكَ بِهِ أَنَسٌ يَشْمَلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كُلَّ ذِي نَفْسٍ، فَكَذَلِكَ تَعَلَّقَتْ أَطْمَاعُنَا بِذَلِكَ وَإِنْ كُنَّا مُقَصِّرِينَ، وَرَجَوْنَا رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ وَإِنْ كُنَّا غَيْرَ مُسْتَأْهِلِينَ، كَلْبٌ أَحَبَّ قَوْمًا فَذَكَرَهُ اللَّهُ مَعَهُمْ فَكَيْفَ بِنَا وَعِنْدَنَا عَقْدُ الْإِيمَانِ وَكَلِمَةُ الْإِسْلَامِ، وَحُبُّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.."{٨}

📖 المراجع 📖

[١] (التحرير والتنوير ١٥/ ٢٨٢) الدار التونسية للنشر – تونس.

[٢] (تفسير الطبري = جامع البيان ٦٢٦/١٧) ط دار التربية والتراث

[٣] (روح المعاني ٨/ ٢١٦ وما بعدها) دار الكتب العلمية – بيروت ط:١

[٤] (الجامع لأحكام القرآن ٣٧٤/١٠) دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة:٢

[٥] (تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥٠٥/٣) دار الكتب العلمية – بيروت. ط:١

[٦](فتح القدير للشوكاني ٣٢٦/٣ دار ابن كثير، دار الكلم الطيب -دمشق، بيروت الطبعة:١ -١٤١٤ هـ

[٧] (تفسير ابن كثير ١٣١/٥) -دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة:١، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م

[٨] (الجامع لأحكام القرآن ٣٧١/١٠ وما بعدها) دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة٢ :

وكتبه:

محمد مهدي نذير قشلان ...

رجاء دعوة صالحة

٢/ربيع الآخر/١٤٤٣هـ الموافق لـ ٢٠٢١/١١/٧م